Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم في ذلك العصر ، يقول الدكتور طه حسين : « وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر الذى يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد ما كان للعرب فى جاهليتهم من نثر ، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلى ، دون أن يحفظ لنا نصا من نصوصه »(١) .

وأنا لا شك فى أن العصر الجاهلى قد عرف النثر الأدبى باعتباره وسيلة من وسائل البيان . ولا أشك كذلك فى أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعى القول عندها ـ على ما قررنا ـ فلا يحق لنا أن نطلب فى الأدب العربى من فنون النثر ما نجده فى الأدب اليونانى أو الرومانى أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب فى الأدب الجاهلى من فنون النثر ما نجده فى الأدب الإسلامى أو العباسى أو نحو ذلك من عصور الأدب العربى ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التى يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفنى ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفنى لما كان لتحديهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدى المعجز لا يكون عن فقر وجهل بما جعل ميدانا للتحدى ، وإنما يكون عن مقدرة ذائعة وتمكن مشهور فى ذلك المجال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفنى لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآنى ويحلوه المحل المؤثر فى نفوسهم ، فيكون سببا فى إسلام طائفة من أعلام الأدب لديهم كما حدث فى إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك فى نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا فى القرآن ما يدفعهم إلى التروى فى الحكم عليه ، ومعاودة النظر فيما يدعوهم إليه ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا شك فى أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله فى كتاب يحفظه ، ولمصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ـ مما كان له

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٣٦٧ .